

تمنيت أن أراها وهي قريبة مني في زيارة لمسرح جديد شيد في بوتسدام قرب برلين بألمانيا خلال مؤتمر مسرحي أقيم في أواسط نيسان عام 2007. لم أكن أول الأمر أعلم أنها تعيش في تلك المدينة الصغيرة للعلاج لكنني علمت بعد ذلك ونحن نعود إلى مقر عملنا في برلين. صرخت بوجه من أخبرني وأوشكت أن أبكي فأنا أعتبر نزيهة الدليمي أختاً لي وإنسانة فاضلة أعز بها وأفخر. لقد ضاعت مني فرصة ثمينة، أن أقف أمامها للحظات أتأملها كياناً إنسانياً كبيراً وأقبل رأسها وأنتظر ما ستقوله لي في بداية الحديث، هل ستعيد ذلك النداء الحميم لي " داد يوسف" وتنتذكر من خلالي أباها "لطفني"، وأمسك بيدها وأتأمل الوجه الذي ارتسمت عليه كل سنوات المحبة والعشق للناس الطيبين واكتشف ما بقي في عينيها من بريق يعكس عمق الرؤية لمشاكل الناس الذين كانوا معه أو في بالها دائماً تبحث عبر ما تعلمت وقرأت ومارست بما يملأ قلوبهم ونفوسهم أماناً وثقة وقدرات كي يقفوا بكرامة وإصرار متمسكين بحقهم الإنساني في عيش حياة كريمة تليق بهم. كنت، لو لم تفتني تلك الفرصة، قد استعدت الكثير الكثير مما قلبت صفحاته لعشرات السنين، وأعود كما عرفتها وعرفتني. عرفتها عن قرب حين تأتي للمسرح وتأتي سعيدة منسرحاً لتهنئتنا أو لتبدي تعليقاً حميمياً فخر به ونسعد. كانت نزيهة أختاً لي، وهي حين تبدأ الحديث معي لا تخاطبني إلا بـ "داد يوسف" مؤكدة لي أنها تحسبني أباها لطفني. كانت تغيب زمناً لا ندري خلاله أين تكون، لكن أخبارها تأتيني من رفيقتها المناضلة "زكية خليفة"، وكانت زكية تغيب هي الأخرى فتغيب أخبارها وأخبار نزيهة فالعمل السياسي آنذاك وفي فترات متقاربة و متباعدة يتطلب الإختفاء وعدم الظهور، لكن وجود المرأة العراقية المناظلة وأثرها في الحركة الوطنية يظل علامة من علامات البسالة ووجهاً من أوجه المرأة الشجاع. كانت نزيهة ورفيقاتها حين يظهرن في مكان، أقول هذا لأول مرة ويصدق وصراحة، ينبعث الأمل فينا وكأنه الثقة والتفاؤل الآتي والأمل القادم، هكذا كنت أنا واحداً من الذين تنتابهم هذه الأحاسيس في ظروف تبدو قائمة ظلماً، لكن نزيهة الأخت المناضلة والإنسانة الحبيبة تزخ الخبر عبر عملها المعلن كطبيبة وغير المعلن في السر واحدة من مناضلات باسلات ظلت في قلوبنا ونفوسنا حقيقة ورموزاً في أن واحد.

حين أسند إليها الموقع الوزاري بعد ثورة تموز 1958 لتكون، حسب علمي، أول وزيرة عربية تشغل موقعاً وزارياً كوزيرة للبلديات، ارتفعت به، أي الموقع، ولم يرفعها لأنها دخلته بجدارة محنكة لتؤكد قدرات المرأة العراقية وإمكاناتها في أن تكون حاملة للمسؤولية كزميلها الرجل إن لم تتجاوزته بتقديرات أخرى مصدرها الإخلاص والإحساس بالواجب الإنساني المسؤول والخدمة النزيهة لشعبها أولاً وللوظيفة التي تشغلها ثانياً كهدف وليس كمنصب تصدر من فوق كرسيه الأوامر والتصريحات. كانت نزيهة الدليمي "الوزيرة" تعمل بوعي المسؤول ولكن ببساطة الإنسانية التي خرجت من أعماق مجموع الناس بلا استعلاء ولا بفضل عليهم، وبقدر ما هي منهم لا تبخل في جهد تبذله لهم وبارتفاع بالموقع الذي لا بد وان يعيش مع الناس وكيف مكانته وكل المتطلبات الأخرى من أجل تقديم ما يخدم الهدف بمضمونه النبيل وليس الإرتفاع والعلو بالشكل والمظهر الفارغ للمكانة الوظيفية حسب. لقد تحولت نزيهة الوزيرة إلى نزيهة الأكثر رقة سلوكاً والأكمل تواضعاً فاتحة المجال رحباً للناس كي يتقربوا منها ويفتحوا قلوبهم لها وكأنها ترسم بذلك السلوك النموذج لمن معها مما يجب أن يكون عليه أي مسؤول آخر. ظلت هذه الإنسانية الكبيرة في نفوس الناس محط تقدير واحترام واعتزاز حتى حين ابتعدت

عنهم في ظروف لم يكن فيها المخلصون والمخلصات كنزبهة حيث يجب أن يكونوا في الواجهة، ظلت تعمل بلا كلل ولا ملل مؤكدة دورها الطبيعي الريادي.

قبل أيام قرأت نبأ وفاتها هناك في بوتسدام، استعدت ذلك اليوم الذي تمنيت أن ألتقيها لأخبرها بأنني وبعد كل سنوات العمر التي مرت بي وبها فإن وجود المسرح الجديد بالقرب منها هو الذي جاء بي إلى بوتسدام لإدامة تواصل الأعبة، فالمسرح كما تدري هي وكما نراه هو "مدرسة الشعب"، لو علمت نزبهة بهذا الحديث المتواضع البسيط لفرحت بأن "داد يوسف" مازال يواصل الدرب وهو في سن الشيخوخة كما فعلت وتفعل هي دائماً وأن أخته نزبهة واحدة من العراقيات الباسلات اللاتي يفخر بهن ويتباهى.

إذن لو التقيتها آنذاك لكحلت عيني بمرآها وهي في أواخر عمرها المضيء وودعتها عن قرب وليس عبر هذه السطور التي كتبتها، فلقد فارقتنا كالحلم لكنها مازالت باقية في أعماق النفس لن تغيب عنا وإن غيبها الموت.